كيف يربّي أطفال الحرب الأهلية في لبنان أولادهم؟

تحقيق: فاتن قبيسي

إذا استفاقت يوماً على إضراب عمالي احتجاجي، تمنع باسمة أولادها من الذهاب إلى المدرسة، تحسباً لأي طارئ.

وإذا شعرت بنوع من التشنج السياسي لدى سماعها نشرات الأخبار، وهو بمثابة فريضة يومية، تبقى في حالة جهوزية طوال النهار لاصطحابهم من المدرسة إلى البيت، «يمكن يصير شي فجأة».

هي كثيراً ما تقضي حوائجها في فترات قبل الظهر، التي يُخيّل اليها أنها أكثر أمناً، وتلتزم منزلها في فترات بعد الظهر.

وإذا شعرت «بأن الوضع غير مستقر»، بحسب تعبيرها، تضربها لوثة تخزين الطعام، فتملأ الثلاجة وخزانة المونة بكل ما يتيسر حمله. «قد يحصل شيء فجائي، ولا يمكن المخاطرة بنفسي أو بزوجي لتأمين الطعام لأولادي. فأحاول شراء كل ما يمكن لفه في سندويشات، أو ما يمكن طبخه سريعاً، حتى لا أقف طويلاً أمام الغاز»، تقول.

وما ينطبق على الطعام، يسري على الأدوية. فصيدلية البيت تمتلئ سريعاً في الحالات التي تستشعر فيها باسمة باقتراب الخطر.

هذه المرأة لا تعيش في زمن الحرب الأهلية. باسمة هي إحدى أمهات اليوم. يبلغ عمرها ٣٩ عاماً، فيما تتراوح أعمار أولادها الثلاثة بين العشر والست سنوات.

تلك الأجواء «الاحترازية» التي تعيشها باسمة غير مرهونة بمرحلة مؤقتة، وبالتالي، فسلوكها مع أولادها بدأ منذ ولادتهم، وما زالت ماضية فيه، تحت شعار «تحسباً لكل طارئ»!

باسمة هي «ابنة» الحرب الأهلية، عاشت خلالها طفولتها وكبرت، وكانت فترة ١٥ عاماً من الاقتتال الداخلي كفيلة ببناء شخصية قلقة، تعيش الحذر على مصير أولادها مع مطلع كل صباح. وجاءت الظروف الأمنية الأخيرة، منذ اغتيال الرئيس رفيق الحريري وما تلاه، و«عدوان تموز»، لترسخ قلقها...

لا ينطبق وضع باسمة بالضرورة على كل أبناء جيل الحرب الأهلية. فتأثيرات الحرب تختلف بين شخص وآخر. ولكن السؤال هو: كيف يربّي أطفال الحرب أولادهم اليوم؟

باسمة تشعر بأن ظروف الحرب ما زالت حية في داخلها. تسترجع بعض تفاصيلها بنقمة: «أمضينا تسعين في المئة من حياتنا إما في الملجأ، وإما على درج المبنى، أو خارج البلد. كنا غير قادرين غالباً على الخروج والترفيه أو حتى اللعب. لم نعش طفولتنا. أذكر كيف كان أهلي يؤمنون لنا الحماية. وهذا ما أفعله مع أولادي، وأعوّض عبرهم عمّا حُرمت منه. أخشى دائماً أن يشعروا بالخوف الذي كان ينتابني في صغري».

تكثر باسمة من فرص خروج أولادها في رحلات ترفيهية وزيارة الأصدقاء، ولكنها في الوقت نفسه تمنعهم من الذهاب إلى المدرسة في بعض الحالات: «في صغرنا، كان القصف يبدأ ونحن في الصف، ويضطر الأهالي لإعادتنا إلى المنزل. لا أريد لذلك أن يحدث مع أولادي».

تقول: «كل أم تخاف على أولادها، ولا تطمئن في كل يوم إلا بعد عودتهم الى البيت.. لكن غلطة الشاطر بألف، وما تعلّمناه على مدى خمسة عشر عاماً يجب ألا يُنسى».

إذا عادت الحرب أسافر

ليست باسمة وحدها المسؤولة عن أجواء الحذر التي تعيشها العائلة، فزوجها توفيق (٤٤ عاماً) يشاطرها المسؤولية، و.. تجربة الحرب الأهلية.

«اللي شفتو ما حدا شافو»، بهذه العبارة يفرج توفيق عن ذاكرة مليئة بصور الجثث، أيام كان يرافق طفلاً والده، إلى مكان عمله في مؤسسة استشفائية. «كنت أرى مشاهد مرعبة.. إصابات بالغة، وجثث بالأكياس، وأشلاء.. والدنيا قصف ودمار وإسعافات». يردف ويضيف: «ولكننا كعائلة كنا نقضي معظم أوقاتنا في منزلنا في الجبل».

وما رصدته عيناه آنذاك، كان كفيلاً بأن يدفع توفيق لمشاركة زوجته قلقها أحياناً على الأولاد. ويقول: «الكبير بيعرف يتخبى إذا صار شي، بس الصغير شو بيعمل؟ ولا يكفي أن نطلب من الولد بألا يخاف، فيما الرعب يملأ قلبه».

ولا يتردد بالقول: «في حال اشتعلت الحرب مجدداً، سأسافر وعائلتي للخارج، وأنسى البلد ومن فيها.. ما حدا بيشرب من كاس مرّ، بيقبل ابنه يشرب منو».

ويصرّ كل من توفيق وزوجته على أنهما لا يبالغان في خوفهما على الأولاد، أو في الإنفاق عليهم وتدليلهم. هما يعتبران أنهما يؤمنان لهم الحماية، وينميان لديهم ثقافة مناهضة للحروب، ويوفران لهم أساليب الترفيه.

منى: «استعادة موضوعية»

كان تأثير الحرب الأهلية على منى مختلفاً. هي تقرأ انعكاساتها عليها كأم، ولكنها تنظر إليها بمنظار اليوم. وتقول إن الظروف الصعبة التي عاشتها آنذاك، لم تترك أثراً دامغاً في نفسها.

هي ما زالت تعاني من انقطاع التيار الكهربائي حتى اليوم، وتضطر وأولادها الثلاثة على الصعود ستة طوابق على الأقدام إلى منزلها.

«ثمن» آخر تدفعه منى اليوم باعتقادها من جراء حرب الأمس، وهو أنها تدفع أقساطاً عالية لتأمين التعليم لأولادها الذكور (أكبرهم ١٢ سنة) في مدرسة خاصة: «لأن الحرب أرجعتنا خمسين سنة إلى الوراء، ولولاها، كان تم على الأقل تطوير المدرسة الرسمية بما يجعلها على قدر المنافسة».

تروي تفاصيل عن الحرب وكأنها على مسافة منها اليوم قائلة: «كنا ندرس غالباً في الملجأ، لأنه كانت «تعلق» ليلاً أحياناً وتهدأ صباحاً، فنذهب الى مدارسنا. وكنا من السذاجة أن نهرول الى ممر المنزل لدى اشتداد القصف لنشعر بالأمان! وكنت وإخوتي في أوقات الهدنة نحمل الغالونات الفارغة لملئها في منطقة رأس النبع، والعودة بها سيراً على الأقدام إلى منزلنا في المصيطبة».

هذه التفاصيل تستعيدها منى «من باب الاستعادة الموضوعية»، بحسب تعبيرها، «لم تسبب لي جرحاً، ربما لأنني لم افقد أحداً من أفراد عائلتي والحمد الله، أو ربما لأن أحداً من العائلة لم يشارك في لعبة الحرب. فكنا نتعامل معها وكأنها كابوس طويل وسينتهي».

ولكن ذلك لا يعني أن منى لا تستحضر ظروف الحرب الأهلية بين حين وآخر، خصوصاً أمام أولادها. فتقول: «لا أهرب منها، ولا أدفنها في داخلي، بل أستفيد منها، وأحوّل سلبياتها إلى أمر إيجابي. فأسترجعها مع أولادي لأخذ العبر، ولأخبرهم بأننا كنا في طفولتنا ندرس في الملجأ، وعلى ضوء الشموع، وأحياناً نقضي ليلتنا في الممر الضيق، ليعرفوا بأنهم مرفهون اليوم، وكل شيء موفر لهم، فيستفيدون من الفرص المتاحة ولا يضيعونها».

هدف آخر يكمن وراء التحدث عن فترة الحرب، وهي إعطاء صورة سوداوية للأولاد عن الاقتتال والدمار. فتحرص الأم على «تسويق» فكرة نبذ الخلافات الداخلية، وتوجيه بوصلة العداء نحو إسرائيل، ودعم المقاومة والجيش اللبناني.

وخارج هذا الإطار، تتعامل منى مع أولادها وكأنهم شغلها الشاغل. تتولى تدريسهم وتوفير نشاطات ترفيهية وتثقيفية لهم. وبالرغم من أنها تتعثر مادياً أحياناً، إلا أنها تصرّ على تلبية معظم طلباتهم، ولو على حساب احتياجاتها الشخصية.

وإذ تلفت إلى وجود مسافة واسعة بين طفولتها وطفولة أولادها، الا أنها تؤكد أن سلوكها معهم لا يأتِ كرد فعل على ما عاينته في صغرها. وتقول: «لست ناقمة على حرماني من شيء في صغري. فظروف الحرب أساساً لم تكن تجعلنا نفكر إلا بسلامتنا. وكان يكفينا أن يصطحبنا أهلنا الى مدينة الملاهي عندما تهدأ الجبهات. وما أفعله اليوم مع أولادي يتعلق أساساً بطبعي. أفضّل منحهم فرصاً لصقل مواهبهم، ولبناء علاقات اجتماعية جيدة، وزيارة المكتبات. ثم إنه عصر الانترنت والستلايت والألعاب الالكترونية، وهو ما لم يكن متوفراً في زماننا حتى نشكو حرماننا منه بحجة الحرب».

لن نتحرر من الألم إن دفناه

تتحدث المتخصصة في علم النفس التربوي مريم مكي عن نوعين من الحروب: داخلية وخارجية. وعدم الاتفاق على العدو الخارجي، يجعل تأثير الحروب الخارجية على الناس، يختلف باختلاف تحديد هوية هذا العدو. في حين أن الحرب الداخلية أكثر قسوة على الناس، لأنها تتخذ منحى تدميرياً. ويلبس الناس بموجبها أقنعة تارة طائفية وأخرى مذهبية، سواء أكانوا داخل دائرة هذه الحرب أم خارجها.

وتوضح قائلة: «عملياً لا أحد خارج هذه الدائرة، ولا أحد اسمه محايد، والكل هم جزء من الحركة التي تدور على الأرض. ويجب ألا يكون محايداً، حتى لا يعيش عزلة، بل أن يقوم بدور توفيقي بين العناصر المتحاربة، لبناء ثقافة جديدة تمنع استمرار الحروب. ولكن للأسف ليست لدينا حتى اليوم ثقافة تطهيرية من الحرب، نربي عليها أبناءنا».

وتعتبر أن «الحرب كالصدمة، الكل يتعاطى معها أو عبرها بحسب القناع الذي يرتديه. فكل منا يحركه التاريخ الشخصي المدفون لديه في هذا المجال. وبهذا المعنى، لا يمكن أن نتحرر من الحرب في تربية أولادنا، سواء أشاركنا فيها أم أدرنا لها ظهرنا».

ورداً على سؤال، ترى مكي أن الذي يبالغ في القلق على أولاده، إنما يربط أفكاره بالوهم، ويدفع ثمن ذلك من صحته وأعصابه. كما أن النموذج الذي لا يحتاط ويتعامل مع الظروف المحيطة كأمر قدري ليس أفضل. المطلوب هو النموذج المتوازن عبر أخذ الحيطة والحذر، وعبر ربط الأفكار بالمنطق تجنباً للقلق المرضي. والأهل لا يتحملون وحدهم المسؤولية، وانما هي ثقافة مجتمع، يجب تغييرها من خلال المدرسة، والإعلام، والمراكز الثقافية.

ولا يفوتها التذكير بانعكاس القلق الزائد على الأولاد، «فينشأ لديهم شعور بالخوف يفوق ما يشعر به الأهل. لأن خوف الأهل مرتبط بالوهم، وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنه ناتج عن ظروف الحرب الأهلية. في حين أن الخوف ينتقل إلى الأولاد بشكل هوسي لا إرادي، خصوصاً أنهم يجهلون أسبابه».

وعن الأهل الذين فقدوا صغاراً شخصاً عزيزاً، تقول مكي إن «الطفل يصبح أسير مرحلة الفقدان، ويصبح متشنجاً أكثر، وعندما يمر في حياته أي شكل من أشكال الحروب أو النزاعات، يعود الى صدمة الفقدان. وقد ينعكس ذلك عندما يقوم بدور الأب أو الأم. لذا، بدلاً من البكاء على الفقيد، يجب التحدث عنه أمام الطفل، حتى يخرج الحدث الأليم من عالمه الداخلي الى يقظته، فيتحرر منه».